مجلة المقتطف

# البستاني

للشاعر الفيلسوف الهندي رابندرانات طاغور *

---

— الجزء الثالث —

نقلها الى العربية كامل محمود حبيب

# البستاني

للشاعر الفيلسوف طاغور

— ٥٧ —

يا دنياي ، لقد قطفتُ زهرتك !
ثم ضممتها الى قلبي فوخزني شوكها
وحينما انهزم النهار ، وانسدل الدجى ، ألفيتُ الزهرة قد ذوت ، غير أن الألم ما انفك يخزني

* * *

يا دنياي ، إن زهرات أُخر ستتفتح بالعبير والسريراء
ولكنْ عمراً كنت أقطف فيه الزهر قد ولّى ، وفي غسق الليل فقدتُ زهرتي
غير أن الألم وحده ما انفك يخزني

— ٥٨ —

ذات صباح ، في البستان المزدهر ، أقبلت فتاة عمياء تقدّم إليّ عدداً من الأزهار لعبتُ في ورقة من أوراق اللوتس
فأحطت يدي وأنهلت عيناي
ثم قلتها وأنا أحدثها « أنت عمياء مثل هذه الزهور
« وأنت نفسك لا تدركين جمال هديتك »

— ٥٩ —

أيتها المرأة ، لست من صوغ الخالق فحسب ، بل أنت من فن الرجال أيضاً ، فهم أبداً ينسجون عليك الجمال من أعماق قلوبهم
فالشعراء ينسجون لك ثوباً من خيوط الخيال الذهبي ، والفنانون يبدعون أبداً على جسدك فنّاً من الخلود القشيب
والبحار تلقي درّها ، والمناجم تثر عسجدها ، والبساتين تفتح — في الصيف —

عن أزهارها ، لتكون لك حلية وزينة وبهجة
إن رغبات القلوب تتفح شبابك بالبهاء
فأنت ... نصف امرأة ، ونصف خيال

— ٦٠ —

وسط ضوضاء الحياة وحولها تقفين أنتِ ، أيتها الخيلة ، وحيدة على الثغر ، في صمت وهدوء ، كأنك قد نُحتِتِ على صخرة
والدهر منكب عند قدميك في تذلله يهيم :
« تحدثي ، تحدثي إليَّ ، يا من أحب ، تحدثي إليَّ يا عروس ! »
غير أن كمائنك كانت قد أغلقت في صخرة ، أيتها الخيلة القاسية

— ٦١ —

إن الهدوء ، يا قلبي ، يذر السر ينقضي في بهجة
وهو لا يجعل النهاية موتاً بل كمالاً
وهو يدع الهوى يذوب في الذكرى ، والألم يفنى في الأغاني
ويذر الرحلة عبرَ السماء تنتهي في طيات جناحين يدفان على وكر
ويجعل القبلة الأخيرة من يديك لطيفة كزهرة النيل
قبي قليلاً ، أيتها النهاية الجميلة ، وتحدثي آخر أحاديثك في هدوء
إني أنحني أمامك ثم أمسك بمصباحي لأنير لك الطريق

— ٦٢ —

في طريق الخيال الحالك ذهبتُ أفتش عن هوى لي كان في خير حياة

* * *

لقد كانت دارها على طرف الشارع الخالي
في نسمات الليل جثم طاووسها الدلال على الباب وتذرى بدموع جفنيه ،
وازوى حمامها هامساً في كمن

* * *

لقد وضعت هي مصباحها إلى جانب الباب ووقفت بزاني
ثم رفعت إليَّ عينيها النجلاوين وقالت في هدوء « أنت في خير يا حبي »

وجهدت أن أتلمس جواباً فطلبني العيّ

* * *

ثم فكرت وفكرت، فما استطعت أن أجد في خاطري شيئاً حتى أسماء ما
فزفرت الجرات في محجريها ، ثم مدّت اليّ يمناها فتناولتها ووقفت في صمت

* * *

لقد اضطرب مصباحي في لمسات الليل ثم خبا

— ٦٣ —

أيها النازح ، أحقاً عليك أن تبرح ؟
إن الليل ساكن ، والظلماء تنشر أستارها على الغابة
والمصابيح في طنني تألق ، والزهور نضرة ، والأعين الشابة ما تزال في يقظة
أفآن لك أن تسير ؟
أيها النازح ، أحقاً عليك أن تبرح ؟

* * *

إنا لم نقيد قدميك بأذرعنا المتوسلة
إن الأبواب أمامك مفتوحة ، وحصانك لدى الباب مُسرج
وإذا كان لنا أن نسد عليك الطريق فذلك بأغانينا فحسب
وإذا كان لنا أن نردك الينا فذلك بنظراتنا فحسب
أيها النازح ، إنا لا نجد القوة على أن نمسكك ، وما لنا من سلاح سوى العبرات

* * *

ما هذا اللهب الذي يقصر في عينيك ثم لا ينطفىء ؟
ما هذه الحمّا التي تتدفق في دمك ؟
أي نداء في ضمير الليل يلح عليك ؟
أي رؤية مروعة استطلعت من خلال النجوم ، فاضطربت رسالتها السرية المختومة
التي قلبك من خلال الليل ... أسريت في صمت وشذوذ

* * *

اذا كنت لا تبالي بالقيا جبلة أيها الغلب انصغ الى نهر الى الهدوء ،
فستنضو، نلصباح وتحطم القيثار
ثم تجلس في هدوء الظلام بين حفيف أوراق الشجر ، على حين يلقي القمر
شعاعه الشاحب على نافذتك

أيها النارح . ماذا عسى أن تكون روح الأرق التي نسجت من صمير الليل ؟

— ٦٤ —

لقد قضيت يومي على ثرى الطريق المضطرم
والآن في برد الليل ، وقفت أطرق باب الخانة : فألفيتها خاوية خربة
إن شجرة (الأثاث) المقضبة قد جذورها النهمة خلال فرجات الحائط

* * *

لقد آن لعابري السبيل أن يتزاحموا هنا ليضعوا أقدامهم المكدودة
إنهم ينشرون حصيرهم في الفناء عند شروق القمر الشاحب ثم يجلسون يتجاذبون حديثاً عن البلاد النائية
وفي الصباح ، تبعث فيهم الأطيار روح المرح ، فيهبون في نشوة ، على حين تحني لهم الزهور الحيية رءوسها من جانب الطريق
غير أني لم أجد ضوء مصباح ينتظرني حين أبلغ
بل تراءى لي سناج مصابيح ظلت تشتعل بالي كثيرة ... تراءى لي يرمقني من خلال الحائط كأنه عيون عمياء
والفراش يضطرب بين الشجيرات مزاء البركة الجافة ، وأغصان الجميزان قد ظللاها على الطريق المشوش
فأنا الضيف الذي لا يجد القرى وقد مال ميزان النهار
وأمامي الليل طويل ، وأنا متعب

— ٦٥ —

أفيكون هذا نداؤك أيضاً ؟
لقد أبلغت الشدة ، والقلوب يضمني إليه ... ة دراعا نحب رفيق
فهل تناديني ؟

* * *

لقد أوقفت عليك — أيتها حسناء القاسية — نهاري ، فهل تريدين أن تسلبني من ليلي أيضاً ؟
في مكان ما ، يؤوي كل شيء إلى النهاية ، وتسكن وحشة الظلماء هي لي أنا

فهل يخترقها صوتك الي ّ يصغي ؟

* * *

أفلم يعزف الليل لحن النوم لدى بابك ؟
أفلم تخفق النجوم الصامتة في السماء من فوق برجك الجافي ؟
أفلم تهز الازهار على ثرى بستانك بين يدي الموت الرقيق

* * *

أختماً أن تناديني ، أيتها القلقة ؟
إذن دعي أعيناً آذاها الهوى تتشوّف عبثاً ثم تذرف العبرات
دعي السراج يحترق في البيت المنزل
دعي الزورق يحمل الماء المكدودين إلى دورهم
إني أذر أحلامي وراء ظهري ثم أنطلق لأبي نداءك

— ٦٦ —

هذا الأفق المُلتاث كان يفتش عن حجر الفلاسفة ، وهو أشعث أغبر ثم مال الى الظل وقد ضمّ شفتيه مثلما أغلق باب قلبه ، وعيناه تأججان كأنهما حباحب [1] يبحث عن رفيقه

* * *

إن أمامه المحيط اللانهائي يزمجر
وهذه الأمواج المضطربة تتحدث أبداً عن الكنوز الخفية ، وتسخر من الجاهل الذي لا يفقه حديثها
لعله فقد الأمل ، غير انهُ ـ بهدأ لأن التعب أصبح دأبه ...
مثلما يفعل البحر حين يرفع واعيه الى السماء ليبلغ المستحيل
أو مثلما تفعل النجوم حين تنطلق في أفلاكها لتنتهي إلى غاية لا تدرك
وبرغم هذا فالأفق الملتاث ما يزال أشعث أغبر يفتش عن حجر الفلاسفة

* * *

وذات يوم أقبل صبي ربيعي يسأله « خبّرني ، أين وجدت قلادتك الذهبية ؟

---

(١) الحباحب ويسمى القدوب : حشرة تشبه الليل تضيء ، وإذا مشت أضاء منها ما يطلق يرجع الى قدرتها على افراز مادة في تركيب جسمها ، ومادة منها تبعث ضوءاً إذا دلك ضوءاً شمعاً واحدة

فنزع الملتاث . . . هذه القلادة الذهبية كانت من حديد ، لم يكن هذا حقاً ولكنهُ هو لا يستطيع أن يثبت متى استحالت إلى ذهب

فراح يضرب جبهتهُ في عنف . . . أين ، أين ، أين نال هو فوزاً ما مجس في ضميره؟

لقد أصبح من طبعه ان يلتقط الحصباء ويمس بها القلادة ثم يلقي بها دون أن يرى أثر اللمسات ، وهكذا وجد الملتاث الحجر ثم فقده

لقد كانت الشمس تتحدر الى الغروب فاصطبغت السماء باللون الذهبي

فعاد الملتاث يفتش ثانية عن الكنز المفقود ، ولكنه كان قد مسَّ الثوب فانعطم جسمه ولصق قلبه بالثرى كأنه شجرة اجتثت من فوق الأرض

— ٦٧ —

ولو أن الليل يقبل في خطى وئيدة يوحي الى الأغاني ان تتخافت ،

ولو أن رفاقك قد فزعوا الى مضاجعهم وأنت تحس التعب ،

ولو أن الخوف يفرغ في الظلماء ، ووجه السماء متقلب ،

لكنك أنت أيها الطائر ، يا طائري ، استمع إليَّ ولا تسدل جناحيك

* * *

ليست هذه عثمة أوراق شجر انقابة ، بل هي عباب البحر وكأنهُ احية السوداء

ليست هذه رقصة أزهار ياسمين ، بل هي وعثات الزبد

آه ، أين الشاطىء السندسي المشرق ، أين وكرك ؟

أيها الطائر ، يا طائري ، استمع إليَّ ولا تسدل جناحيك

* * *

إن الليل الموحش قد ران على الطريق البلق ، والفجر وسنان خلف الهضاب المظلمة

والنجوم تمسك أنفاسها وتحصي الساعات ، والقمر الحائر يسبح عبر الليل العميق

وأنت أيها الطائر ، يا طائري ، استمع إليَّ ، ولا تسدل جناحيك

* * *

لا أمل عندك ، ولا خوف

لا كلة ، ولا همسة ، ولا صيحة

لا دار لك ، ولا فراش ترتاحك

ليس لك غير جناحين وإلا السماء الندية

فيا أيها الطائر ، يا طائري ، استمع إليَّ ولا تسدل جناحيك

— ٦٨ —

يا صاحبي ، ليس على الحياة مَنْ يجد أو ما يعسر . احفظ هذا عني ثم التمس لنفسك لذتها

ليست حياتنا وحدها حملاً قديماً ، وليس سبيلنا وحده سفراً بعيداً
وليس لشاعر واحد أن يترنم بأغنية خالدة
إن الزهرة لتذوى وتموت ، ولكن الذي يتحلى بها لا يأسى عليها طويلاً
يا صاحبي ، احفظ هذا عني ثم التمس لنفسك لذتها

* * *

لا بدَّ من سكتة تنشد الموسيقا — من بعدها — لحن الكمال
فالحياة تدلف صوب الغروب لتغمر في الظلال الذهبية
والحب لا بد أن يرتد من ملعبه فيرشف كاسات الحزن ويلغ أسباب العبرات
يا صاحبي ، احفظ عني ثم التمس لنفسك لذتها

* * *

إنا تدفع لتقطف زهراتنا خشية أن تسلبها الرياح العاصفة
بيد أن لفت الحياة في عروقنا والتأنق في نظراتنا أن تختلس قبلات كانت تخطفنا في أبطأ
إن رحياتنا تجذب القلوب ، وأن في رغباتنا الحدة ، لأن الزمان يدق ناقوس الفراق
يا صاحبي ، احفظ عني ثم التمس لنفسك لذتها

* * *

ليس في العمر سعة لتمسك بالشيء فتسحقه فتقذف به في الرغام
فالساعات تمر سراعاً تلف الأحداث في أذيالها
إن حياتنا القصيرة لا تلد سوى آية من الحب قليلة
ولو أنها كانت أيام عمل وجهد لتحدَّ من الزمن
يا صاحبي ، احفظ عني ثم التمس لنفسك لذتها

* * *

إن في الحنان حلاوة لأنه يراقص حياتنا على وقعات النغم الزائل
والمعرفة غاية لأننا لا نجد في الأحلام نسجة لأيامها

كل شيء قد أنجز وتم في السماء الخالدة
ولكن زهرات الخيال الأرضي يفتحها الموت بالنضارة اللانهائية
يا صاحبي ، احفظ هذا عني ثم التمس لنفسك لذتها

— ٦٩ —

إني أصيد الظبي الذهبي
قد تبسم ، يا صديقي ، غير أني أراعي في إثر المنظر الذي يخلبني
فأنا أعدو عبر النجاد والوهاد ، وأضرب في أرجاء الأرض المجهولة لأتصيد الظبي الذهبي
إنك تأتي إلى السوق لتشتري وترجع إلى دارك حاملاً حاجاتك ، ولكن سحر الريح الأفاقة قد لمسني ولست أدري متى ولا أين
لقد تحللتُ من نوازع قلبي ، فكل ما يشغلني قد خلفته ورائي
فأنا أعدو عبر النجاد والوهاد ، وأضرب في أرجاء الأرض المجهولة لأتصيد الظبي الذهبي

— ٧٠ —

إني أذكر يوماً من أيام طفولتي حين كنتُ ألهو بزورقي الورقي وهو يطفو على الغدير
لقد كان يوماً طرباً من أيام بوبه وكنتُ وحدي ، سعيداً بألعوبتي
وكنتُ ألهو بزورقي الورقي وهو يطفو على الغدير

* * *

وعلى حين بغتة انعقدت السحب ، وعصفت ريح عاتية ، وفتحت أبواب السماء بماء منهمر
ثم تدفقت سيول الماء الكدر تجرف الغدير والمرقى زورقي
وفي أسى ، طاف بخاطري أن الحياة لا تهدأ إلا أن تحطم سعادتي وأن تثأر مني في غير
وحان يوم بوليه الموس ، فاطلقت حواطري من الاعيب الحياة التي بددتُ

وأخذت أنوم حظي على أن خدعني ، وعلى حين فجأة ذكرت زورقي الورقي الذي غرق في الغدير

— ٧١ —

لم ينصرم النهار بعد ، ولم ينقضِ اللعب . . . اللعب الذي على شاطىء النهر

لقد خشيت أن يكون يومي مسرفاً لم يدع لي فلساً

ولكن لا ، لا ياصاحبي ، إن شيئاً ما يزال معي ، وإن حظي لم يستلبني من كل شيء

* * *

الآن إنقضَّ البيّعان

لقد جمعت الضرائب من كل الطرقين ، وآن لي أن أرجع إلى داري

ولكن ، أيها البواب ، أتطلب جُعْلك ؟

لا تَرُعْ ، فإنما ما زلت أملك شيئاً ، لأن حظي لم يستلبني من كل شيء

* * *

إن سكنة الرباح تنذر بالعاصفة ، وإن السحب المتكهرة في الغرب لا تبشر بخير

ولكنه ساج ينتظر هبة الريح

أما أنا فأشتد لأعبر النهر قبل أن يشملني الظلام

ياصاحب المعبر ، لعلك تريد أن تطلب أجرك !

نعم ، ياصاحبي ، فإنما ما زلت أملك شيئاً ، لأن حظي لم يستلبني من كل شيء

* * *

وعلى جانب الطريق ، في ظلال الشجرة ، جلس الشحاذ . وا أسفاه ، إنه يحدق في وجهي بعين مملوءة بالضراعة

ماذا في رأيه ، غير ما كسبت في يومي

نعم ، ياصاحبي ، فإنما ما زلت أملك شيئاً ، لأن حظي لم يستلبني من كل شيء

* * *

قد حان وقت الليل . وخلا الطريق ، وياصاحب يتألق بين أوراق الشجر

لمن أعدك تكون يامن تتفحصني في خطى وئيدة خائفة ؟

آه ، لقد عرفت ، إنك تريد أن تنزع مني كل ما ملكت . لن أخيفك في رغبتك فأنا ما زلت أملك شيئاً ، لأن حقي لم يسلبني من كل شيء

* * *

وعند نصف الليل بلغتُ داري يدين فارغتين
وأنت لدى الباب تنتظرين في يقظة وصمت ، وفي عينيك الرغبة
ثم طرت الى صدري في شغف ، طيران الطائر الفزع
آي ، آي يا إلهي ، إن شيئاً كثيراً ما يزال معي ، فحظي لم يسلبني من كل شيء

— ٧٢ —

لقد دأبت على العمل الشاق أياماً لأشيد معبداً . . . معبداً لا باب له ولا نوافذ ، وحوائطه العريضة من الحجر الصلد

لقد نسيت ما عداه ، وأعرضت عن العالم ، ثم أخذت أحدق ، وأنا غارق في تأملاتي ، في الصورة التي علقتها على المذبح

إن الظلام الدامس يشمله دائماً ، غير أن مصابيح ذات الزيت العطري تنير جنباته

ودخان البخور المتكاثف يضم قلبي في ثنايه

وفي نهاية الأرق ، رحت أنقش على الحيطان رسوماً خلابة في خطوط غريبة متشابكة : أفراساً ذات أجنحة ، وزهوراً لها وجه إنسان ، ونساء بأرجل ثعبانية

ليس في المعبد فرجة تنفذ من خلالها هازج الطير ، ولا حفيف الأشجار ، ولا ضجة القرية الصاخبة

غير أن صوتاً واحداً كان يتردد في رحابه المقدسة ، هو صوت الريح التي أثيرها إن في عنفي النشاط والهدوء كأنها لهب الساعة . ومشاعري يغشاها الذهول فلست أذكر كيف انقضى الزمن منذ كانت نافذة تصمع المعبد . ومنذ كان الأمل يحز قلبي

* * *

إن المصباح يتراءى شاحباً خجلاً ، وإن نقوش على الحائط تتحرك كأنها سلسلة من الخيالات . . . تنصر في الضوء نظرات ورقة كأنما تريد أن تواري خجلها

وكنت أنا أحدّق في الصورة على الدوام ، تخيل إليّ أنها تبسم وتتحرك اثر لمسة إلهية . بن الليل الذي سَجَنْتُ قد نشر جناحيه ثم توارى

— ٧٣ —

يا أمي الأرض ، ليس انوّاء اللانهائي لك أنت أيتها الشقاء الصبور
بنك تكدين لتدفني مخمصة تصيب صيتك ، ولكن الغذاء قليل
وهدية الهدة التي تحفظين لنا ليس فيها الكمال
وانصب التي تصنعين لأبنائك هشة
إنك لا تستطيعين أن تشبعي نهم آمالنا ، أفأهجرك لهذا ؟
إن ابتساماتك حلوة في ناظريّ رغم أن آثار الألم تضطرب في نواحيها
وحبك عزيز على قلبي رغم أنهُ ناقص
من صبرك أسبغت علينا الحياة وليس الخلود،لهذا أرى عينيك،أبداً،في يقظة
منذ ترون وقرون وأنت تهيئين الأصباغ والأغاني ،وللآن لم تشبدي سماءك
بن وساوسها الحزينة
وهناك ، حول خلقك الجميل سحب من العبرات
سأمسك نفسي في قلبك الصامت ، وأفرغ حبي في هواك
سأعيدك بالعمل
فقد رأيت وجهك النضر — يا أمي الأرض — فأحببت تراك الكئيب

— ٧٤ —

على مسرح الدنيا جلست النبتة الضئيلة وشعاع الشمس ونجم الليل جميعاً
على بساط واحد
وهكذا اتخذت أغانيّ مكانها في قلب الارض بإزاء موسيقا السحب والغابات
ولكنك أنت أيها الفتى،بن رؤوسك لا تجد مكانها في سلطان الشمس الذهبي
المرح ، ولا في نور القمر الرقيق
بن رحمة السماء التي تضم الجميع لا تقربك
وحين يقبل الموت يعريها الشحوب وتذوي وتهوي الى التراب

— ٧٥ —

في منتصف الليل قال الراهب المتنظر :

« لقد آن لي أن أبدد داري لأخرج الى ربي . آه ، من ذا الذي أمسك بي طيلة هذه المدة هنا ..... في هذا الضلال ؟ »

فهمس الله « أنا » غير أنهُ كان في أذني الرجل وقرٌ

وفي ناحية من الفراش كانت تنام زوجه في هدوء ، وقد ضمت طفلها النائم الى صدرها

قال الرجل « من غير أن تكون بإمكان تفلتني ليلة هذه المدة ؟ »

فيقول الصوت ثانيةً « إنهُ هو الله » ولكنهُ ما يزال في أذني الرجل وقرٌ

وصاح الطفل من خلال أحلامه وقد لصق بأمه

فأمرَ الله « قف أيها الغبي ، لا تبرح دارك » ولكنهُ ما يزال في أذني الرجل وقرٌ

فيعيد الله في تذمر « لماذا يريد عبدي أن يطلق يفتش عني ، فيأتي عني ؟ »

— ٧٦ —

لقد كانت السوق في جوار المعبد . وكان المطر ينهلُّ منذ الصباح الباكر والآن قد انقضى النهار

كل هذا البشر الذي يشيع في وجوه الناس يبدو واهياً إذا قيس بابتسامة تأتي من شفتي طفلة احتازت بين واحد — حفارة من سعف النخيل

بصوت صفير هذه الصفرة الحاد المرح يقضي على كل هذه الضحكات وهذا الصخب

... أين فيض من الناس يزدحمون ، على حين كان الطريق مهجوراً . والزهر مبعثراً . والحقول خلت حين من الشعر ما يكفي

وفي غناء هذا الصدى يفوق كل . نهاية هذه الزمر ، فهولا يجد منفذاً واحداً يتسرب عبثاً

وصباح المشوقان ترمقان تركان الذي ظل ساكناً في هذا الصمت

— ٧٧ —

نقد نزح العامل وزوجه من الأقطار القريبة ، وهما الآن يحفران في جد يشان الطوب للقرين

وابنتهما الصغيرة تختلف الى الموردة حيث لا تنتهي من صفق الدور رجلاء الأوعية

وأخوها الأصغر يسير على أثرها ، ورأسه حليق وأطرافه السمر عارية وملوثة بالطين ... وهو لدى الشاطىء ينتظر أمرها في صبر

ثم هي ترجع الى الدار وعلى رأسها جرتها المزعة منتصبة في اتزان ، وقدرها النحاسي اللامع في يسراها ، وفي يمناها يد أخيها الأصغر ... إنها خادم أبيها الصغيرة خدمها التي تحمل أعباء الدار

وفي ذات يوم ألفيت هذا الصبي العاري جالساً وقد مدَّ رجليه

وأخته على الماء تحك وعاء الشرب ببقية من تراب ، وهي تديره بين يديها وتديره وعلى خطوات منها حمل ناعم الصوف يرعى على طول الشاطىء

وراح الحمل يدنو من الطفل رويداً رويداً ، وعلى حين فجأة ماماً ففزع الطفل وصرخ

فنبذت الأخت وعاءها وانطلقت صوب أخيها

ثم أمسكت بالطفل في يد وبالحمل في يد ، وحبت كلاً منهما ببعض عطفها ، ومن قلب واحد انبعث حنان الأمومة الحيوانية والانسانية معاً

— ٧٨ —

لقد كان في مايو ، والظهر المكفهر يتطلى كأنه لاتهائي ، والأرض الجافة تنفخ حُرق العطش من أثر الحر

في حين سمعت من جانب النهر صوتاً ينادي « تعالي يا عزيزتي »

فأغلقت كتابي وفتحت الشباك أتشوف

فرأيت جاموسة ضخمة ملطخة بالطين تقف الى جانب النهر في هدوء ، وفي عينيها الصبر ، وعلى خطوات منها فتى ينادي بنداءه لذة ما عمر هو فيه قديم

فجلست في طرب وأنا أستشعر لمسات اللذة في نفسي

— ٧٩ —

طالما جست خلال أرض تكمن فيها حدود المعرفة التي تفصل بين الانسان والحيوان . . . الحيوان الذي لا يعرف قيمة نعمة الكلام

في أي جنة أزلية في فجر الخليقة ، خُطَّ الطريق السهل الذي عليه تزاورت قلوبهما

أن آثار خطواتهما الثابتة لن تمحي وإن طمست الأيام على وشائج كانت بينهما

ولكن على حين بغتة ، وعلى نغم الموسيقا الالهية ، نهب الذكرى النائمة فيحدق الحيوان في وجه الانسان في إخاء رفيق ، وينظر الانسان في عيني الحيوان في عطف جميل

فيتراءى كأن الصديقين يتلاقيان متنكرين ، فلا يستطيع واحد أن يتعرف على صاحبه من خلال نقابه

— ٨٠ —

أيتها الحسناء ، إن نظراتك تستطيع أن تستخرج كنز الأغاني من قيثارات الشعراء

ولكنك لا تعيرين ثناءهم أذناً سامعة ، ولهذا فقد جئت أتغلغل

إنك تستطيعين أن تدوسي أعظم كبرياء في العالم

غير أن أحباءك الذين لا تصيبهم نشوة هم الذين اخترت لتعبدي ، ولهذا فأنا أعبدك

إن جمالك وداعيك يريد في روعة تأنقهما المتوكلة

ولكنك تفضلين بهما العبارة وتقدرين مهما مدارك الأرضية ولهذا فالأسى يملأني

— ٨١ —

أيتها الحسناء ، يا فتاتي ، لماذا تصدر في أذني صفيراً حاداً

في المساء ، حين تتداعى الزهور ، وتؤوب الفتيان الى حظائرها . تسترق أنت الخطى الى جانبي وتتحدث حديثاً لا أفهمه

أهكذا — أيها الفناء ، يا فتاتي — تريد ان تتودد إليّ وتجذبني اليك بجرعة من حديثك الخدر وقبلاتك البيضة

* * *

أفلا يكون لعرسنا حفل بهيج ؟
أفلا تتوج عقائص شعرك الأسحر باكليل من الزهر ؟
أفلا يتقدمك من يحمل رايتك ، ومن يزيح ظلمات الليل بمشاعلك الحمراء ، يأيها الفناء ، يا فتاتي ؟
تعال وهات قبعات أصدقائك ، تعال في الليلة الساهرة
والبسني الرداء القرمزي ، ثم امسك يدي واجذبني اليك
ولتكن عربتك لدى باب على أهبة الرحيل ، وأفراسك تصهل في غير صبر
ثم ارفع قناعي . أيها الفناء ، يا فتاتي . وحدق في وجهي في كبرياء

— ٨٢ —

إن عليّ أنا وعروسي أن نلعب الليلة لعبة الموت
إن هذه الأمسية حالكة ، والسحب تتقاذفها الأعاصير ، والأمواج تزمجر
لقد بدّت أنا وعرسي وطاء أحلامنا ، وفتحنا الباب على مصراعيه ، ثم خرجنا وجلسنا على الأرجوحة ، والرياح الزفزافة تدفعنا من وراء في عنف
لقد هبت عرسي في فزع ومرح ، ثم لمعت بصدري وهي ترتعد
وطالما حبوتها بمنايتي
لقد كنت أهيىء لها فراشاً من الأزهار ، وأغلق الباب خيفة أن يفزع الضوء اللجلاج عينيها
ثم أقبل شفتيها في رفق وأهمس في أذنيها في رقة حتى يغلبها النعاس
فتتمتم في حجب لا نهائية من اللذة الغامضة
لا تمس لساني ، ولا تستطيع أغانيّ أن توقظها
والليلة بلغنا صوت العاصفة من الناحية الموحشة
فازدادت عروسي وهبت تمسك يدي في فزع
أن الرياح نعبت بشعرها ، وان ثغرها يضطرب ، وان حلاها على صدرها توسوس

لقد ردتها دفعة الموت الى الحياة
وعن الآن ، أنا وعروسي ، وجهاً الى وجه ، وقلباً الى قلب

— ٨٣ —

إنما كانت تسكن في محلتنا الوادي على حافة غيط الذرة ، على خطوات من الغدير الذي يفيض على السواقي الضاحكة ، تحت ظلال الأشجار القديمة . إن النساء يأتين بملآن جرارهن ، والسمر يجلسون يتناسون أسباب الراحة والحديث وهي تعمل كل يوم وتحلم على لثم حباب ماء الغدير

وفي ذات مساء أقبل عابر سبيل يُنشِم من لدن اللقمة التي تلفها السحب ، وقد صفر شعراً كأنه الثعابين الوسنى ، فسألناه في دهشة « من عسى ان تكون ؟ » فلم يرد جواباً ، غير أنه جلس الى جانب الغدير الزئار ، وراح يرمق دارها في صمت ، فتصفت قلوبنا من رجفة الخوف ، ورجعنا الى دورنا حين أقبل الظلام

وفي الصباح التالي ، اقبلن النساء الى الغدير عند شجرات ( الدودار ) بملأن جرارهن . فألفين بابها مفتوحاً ، وقد صمت صوتها . فأين — يا ترى — اختفى وجهها البسام ؟ إن جرتها ملقاة على الثرى فارغة وقد احترق مصباحها . أي حدس سيتفيهن يقول الى أين ذهبت قبل ان يلمع الصبح ... والى أين انطلق عابر السبيل ؟

وفي شهر مايو أخذت الشمس تلفحنا بأوارها فأدابت الجليد ، وجلسنا نحن الى جانب الغدير نبكي . ونحيب « أتكون في الأرض التي فزعت اليها غدير ، ومن أين نملأ جرارنا في هذه الأيام الظمأى ؟ » ثم انطلقنا نتساءل « أفهناك أرض وراء هذه التلال التي تضمنا ؟ »

كانت ليلة صافية ، والنسيم يهب من لدن الجنوب ، وأنا جالس في حجرتها الخالية حيث مسحوا المنطق ، وعلى حين غفلة رأيت التلال تنحسر أمام ناظري كأنها أستار ترفع ، آه ، انها هي تدنو . كيف أنت يا طفلتي ؟ أأنت سعيدة ؟ أين وجدت المأوى تحت هذه السماء المفرجة ؟ و ... وا أسفا ... لقد توارى الغدير الذي يفيء ظلك ؟ »

فقالت دار السماء هي السماء غير أنها انفلتت من حدود الملاك ... وأن القدير هو القدير يشتد صوب النهر ... وإن الأرض هي الأرض تنبسط في سعة، فأرهت أنا وكل شيء هنا إلا أنحن ؛ فبقيت في خزر ثم قلت: إنك أنت في ملئي! واستيقظت من نومي فسمعت خرير القدير وحفيف شجرات (الدودار) ... تمتمها تخرق صمت الليل

— ٨٤ —

على حفر الأرز الخضر والصفر انتشرت ظلال سحب الخريف بطاردها شعاع الشمس المنطلق

لقد نسيت النحل أن ترشف رحيقها حين تكبرها نشوة الضوء ؛ فانطلقت في فيض نحوم ونغن

والبط في جراثم النهر يبسط في مرح وإلى غير غاية

يا صاحبي : لا تدع واحداً ينطلق الى داره ينفذ الى عمق هذا الصباح

دعنا نمرح سماء الضاية قبل العاصفة ؛ واستلب الفضاء بالصدو

إن الضحكات تسبح في الفضاء كزبد النهر

يا رفيقي ، تنشد الصباح بالأغاني الدائبة

— ٨٥ —

من عسى أن تكون يا قارئي الذي تقرأ أثري بعد مائة سنة ؟

أنا لا أستطيع أن أرسل اليك زهرة واحدة من رياض الربيع ، ولا خيطاً ذهبياً من خيوط السحب البعيدة

فافتح بابك وسرّح الطرف

واجمع من حدائق الدهر شتات ذكريات ربيعت منذ مائة سنة

فلعلك ، من ثنايا نشوات قلبك ، تستشعر عبير هذه الزهرة التي أرسلت عليها في فجر يوم من أيام الربيع ، فسمعت صوتها الشجي منذ مائة سنة

الشعر لحمد فتحي كامل من جنس